

٨ - المعتصم بالله

بويح لأبي إسحاق المعتصم «محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي» سنة ثمان عشرة ومائتين بالخلافة، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب. وأمه أم ولد يقال لها «ماردة».

قال «ابن عبد ربه» في «عقده»: وكان أبيض أصهب اللحية، طويلها، مربوعاً مشرب اللون حمرة، نقش خاتمه: الله ثقة أبي إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن، وكان شديد البأس، حمل باباً من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلاً، وفوقه عِكام^(١) فيه مائتا وخمسون رطلاً وخطا خُطى كثيرة، وكان يسمى ما بين إصبعي «المعتصم» «المِقْظرة» لشدته، وإنه اعتمد يوماً على غلام فدَقَّه، وذكر «النصولي» أنه كان يسمى «المُثْمَنَ»، وذلك أنه الثامن من خلفائهم^(٢).

وقال ابن أبي دؤاد: كان «المعتصم» يخرج ساعده إليّ ويقول: يا أبا عبد الله! عَضَّ ساعدي بأكثر قوتك، فأمتنع، فيقول: إنه لا يضرنني، فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان^(٣).

وكان «المعتصم» يعفو عند المقدرة، ويصفح في ساعة الانتقام، وحلمه يكبح سيفه، فقد روى صاحب «العقد الفريد» فقال: قال «أحمد بن أبي دؤاد»: ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يحب أن يفعل إلا «تميم بن جميل»، فإنه كان تغلَّب على شاطيء الفرات، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين «المعتصم» في يوم الموكب حين يجلس للعامة، ودخل عليه، فلما مثل بين يديه، دَعَا بالنُّطْع والسيف، فأخضراً، فجعل «تميم بن جميل» ينظر إليهما ولا يقول شيئاً، وجعل «المعتصم» يُصَعِّدُ النظر فيه ويصوِّبه، وكان جيماً

(١) العِكام: العِذَل.

(٢) العقد الفريد (١٢١/٥).

(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩١.

وسيمًا، ورأى أن يتطقه لينظر أين جَنَانُهُ ولسانه من منظره؛ فقال: يا تميم! إن كان لك عذر قَاتٍ به، أو حجة فأذِلْ بها، فقال: أما إذ قد أذِنَ لي أمير المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلقَ الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، يا أمير المؤمنين! إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة، ولقد عظمت الجريرة، وكَبُرَ الذنب وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربُهما منك، وأسرعُهما إليك وأولهما بإمامتك، وأشبهُهما بخلافتك ثم أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنُّعجِ كامناً
وأكبر ظنني أنك اليوم قاتلي
ومن ذا الذي يدلي بعذرٍ وحجّةٍ
يَعِزُّ على الأوس بن تَغْلِبٍ موقفٌ
وما جزعي من أن أموت وإنني
ولكن خلفي صبية قد تركتهم
كأنني أراهم حين أنغى إليهم
فإن عشتُ عاشوا خائفين بغيطةٍ
فكم قائل لا يبعد الله روحه
قال: فتبسم «المعتصم» وقال: كاد والله يا تميم! أن يسبق السيف العَدَلَّ،
أذهب فقد غفرتُ لك الصُّبُوة، وتركتك للصبيّة^(١).

ونقل «المسيوطي» عن الذهبي قوله: كان «المعتصم» من أعظم الخلفاء وأهيبهم، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن.

وعن نِفْطَوْنِه: وكان من أشد الناس بطشاً، كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره، وقال غيره: هو أول خليفة أدخل الأتراك الديوان.

وكان يتشبه بملوك الأعاجم، ويمشي مشيهم، وبلغ غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفاً.

وقال ابن يونس: هجا «دعبل» «المعتصم»، ثم نذر به، فخاف وهرب حتى

(١) العقد الفريد (١٥٨/٢ - ١٥٩).

قدم مصر، ثم خرج إلى المغرب، والأبيات التي هجاه بها هذه:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتني في ثامن منهم الكُتُبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة غداة ثوروا فيه وثامنهم كلبُ
وإني لأزهي كلبهم عنك رغبة لأنك ذو ذنب وليس له ذنبُ
لند ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيفٌ وأشناسٌ وقد عظم الخطبُ
وإني لأرجو أن ترى من مغيبها مطالع الشمس قد يَغصُّ بها الشَّرْبُ
وممُّك تركيُّ عليه مهانةٌ فأنت له أم وأنت له أبُ

وتابع «السيوطي» قوله: بويغ له بالخلافة بعد «المأمون» في شهر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، فسلك ما كان «المأمون» عليه، وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن، فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقاً من العلماء، وضرب الإمام «أحمد بن حنبل»، وكان ضربه في سنة عشرين ومائتين.

وفيها تحول «المعتصم» من بغداد، وبنى «سُرَّ من رأى»، وذلك أنه اعتنى باقتناء الترك، فبعثه إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم، وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، فكانوا يطردون خيلهم في بغداد، ويؤذون الناس، وضافت بهم البلد، فاجتمع إليه أهل بغداد، وقالوا: إن لم تخرج عنا بجندك حاربناك، قال: وكيف تحاربونني؟ قالوا: بسهام الأسحار، قال: لا طاقة لي بذلك، فكان ذلك سبب بنائه «سُرَّ من رأى» وتحوله إليها^(١).

وكان «المعتصم» يتسم بشهامة نادرة، ومروءة فذة، ونخوة فريدة، فقد تناهت إلى مسامعه صرخة فتاة عربية مسلمة وقعت في أسر الروم في عهده، فصرخت: وامعتصماه! فهبَّ من مجلسه، وجَهَّز جيشاً عرمرماً، وانطلق بنفسه إلى «عمورية» فاستنقذها من أعداء الله والدين.

وقد حَلَّد الشاعر «أبو تمام الطائي» معركة «عمورية» والانتصار العظيم الذي حققه «المعتصم» يومئذ بهذه القصيدة الخالدة، فقال:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حدِّه الحد بين الجد واللعبِ

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩٢.

بيض الصفائح لا سود الصحائف في
والعلم في شهب الأرماع لامعة

وكان المنجمون قد أخبروا «المعتصم» أن وقت خروجه إلى الروم ليس
مناسباً، وقالوا له: إن معركته خاسرة، لكن «المعتصم» خالفهم وخرج، وعاد
بالنصر المبين، فقال أبو تمام:

صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟
ليست بنبيع إذا عُدَّت ولا عَرَب
عنهن في صَفَرِ الأصفار أو رجب
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
ما كان منقلباً وغير منقلب
ما دار في فلكٍ منها وفي قُطْبٍ
لم تخف ما حَلَّ بالأوثان والصُّلْبِ
نظم من الشعر أو نشر من الخُطْبِ
وتبرز الأرض في أثوابها القُشْبِ
منك المنى حُفْلاً معسولة الحَلْبِ
والمشركين ودار الشرك في صَبَبِ
فداءها كلُّ أمٍّ منهم وأب
كسرى وضدَّت صدوداً عن أبي كَرَبِ
ولا ترقَّت إليها همة النُّوْبِ
شابت نواصي الليالي وهي لم تَشِبِ
مَخْضَ البخيلة كانت زبدة الحَقْبِ
منها وكان اسمُها فراجة الكُرْبِ
إذ غودرت وحشة الساحات والرَّحْبِ
كان الخراب لها أعدى من الجَرَبِ
قاني الذوائب من آني دم سَرَبِ
لا سنة الدين والإسلام مختَصِبِ
للنار يوماً ذليل الصخر والخُشْبِ
يُشْلُهُ وسطها صبح من الذهبِ

أين الرواية أم أين النجوم وما
تخرصاً وأحاديثاً ملفقة
عجائباً زعموا الأيام مُجْفِلة
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة
وصيَّروا الأبراج العليا مرتبة
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
لو بَيَّنت قطُّ أمراً قبل موقعه
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
فتح تفتَّح أبواب السماء له
يا يوم وقعة عمورية انصرفت
أبقيت جدَّ بني الإسلام في صُعدِ
أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها
بكرُّ فما افترعتهما كفُّ حادثة
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد
حتى إذا مَخْضَ الله السنين لها
أتتهم الكربة السوداء سادرة
جرى لها الفأل بزحاً يوم أنقرة
لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كم بين حيطانها من فارس بطل
بسنة السيف والجناء من دمه
لقد تركت أمير المؤمنين بها
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى

عن لونها وكأن الشمس لم تغيب وظلمة من دخان في ضحى شجب والشمس واجبة من ذا ولم تجب عن يوم هيجاء منها طاهر جنب بان بأهل ولم تغرب على عزب غيلان أبهى ربي من ربها الحرب أشهى إلى ناظري من خدها التراب عن كل حسن بدا أو منظر عجب جاءت بشاشته من سوء منقلب له العواقب بين السمر والقضب لله مرتقب في الله مرتغب يوماً ولا حجت عن روح محتجب إلا تقدمه جيش من الرعب من نفسه وحدها في جحفل لجب ولو رمى بك غير الله لم يصب والله مفتاح باب المعقل الأشب للمارحين وليس الورد من كئيب طباً السيوف وأطراف القنا السلب دلو الحياتين من ماء ومن غشب كأس الكرى ورضاب الخرد العرب بزد الثغور وعن سلسالها الحصب ولو أجبته بغير السيف لم تجب ولم تعرج على الأوتاد والطنب والحرب مشتقة المعنى من الحرب فعزه البحر ذو التيار والحذب عن غزو محتسب لا غزو مكتسب على الحصى وبه فقر إلى الذهب يوم الكربة في المسلوب لا السلب بكتة تحتها الأحشاء في صحب

حتى كان جلابيب الدجى رغبته ضوء من النار والظلماء عاكفة فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت تصرح الدهر تصریح الغمام لها لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على م ربع مئة معموراً يطيف به ولا الخدود وقد أدمين من خجل سماجة عنيت منا العيون بها وحسن منقلب تبدو عواقبه لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت تدبير معتصم بالله منتقم ومطعم النصر لم تكهم أسنته لم يغز قوماً ولم ينهد إلى بلد لو لم يقذ جحفاً يوم الوغى لغدا رمى بك الله برجها فهدمها من بعد ما أثبوها واثقين بها وقال ذو أمرهم لا مرتع صدأ أمانياً سلبتهم نوحها ما جها إن الحمامين من بيض ومن سمر لبنت صوتاً زبظراً هرقت له عداك حر الثغور المتضامة عن أجبته معلناً بالسيف منصلاً حتى تركت عمود الشرك منغفراً لما رأى الحرب رأي العين توفلس غدا يصرف بالأموال جزيتها هيهات زعزعت الأرض الوقور به لم ينفق الذهب المربي بكثرته إن الأسود أسود الغيل همها ولئى وقد أجم الخطي منطقه

يَحْتَتُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرَبِ
 مِنْ خَفَةِ الْخَوْفِ لَا مِنْ خَفَةِ الطَّرَبِ
 أَوْسَعَتْ جَاجِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الْحَطَبِ
 أَعْمَارَهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التَّيْنِ وَالْعَيْنِبِ
 طَابَتْ وَلَوْ ضُمَّخَتْ بِالْمَمَكِ لَمْ تَطِبْ
 حَيَّ الرِّضَا مِنْ رَدَاهُمْ مَيْتَ الْغَضَبِ
 تَجَثُّو الْقِيَامَ بِهِ صَغَرًا عَلَى الرُّكْبِ
 وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضِ شَنِيبِ
 إِلَى الْمَخْدَرَةِ الْعِذْرَاءِ مِنْ نَبَبِ
 تَهْتَزُّ مِنْ قُضْبٍ تَهْتَزُّ فِي كُتُبِ
 أَحَقُّ بِالْبَيْضِ أْتْرَابًا مِنَ الْحُجْبِ
 جَرِثُومَةُ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَبِ
 تَنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
 مَوْصُولَةٌ أَوْ ذِمَامٌ غَيْرُ مُنْقَضِبِ
 وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرِ أَقْرَبِ النَّسَبِ
 صَفَرَ الْوَجُوهَ وَجَلَّتْ أَوْجَةَ الْعَرَبِ (١)

أَحْدَى قَرَابِينَهُ صَرَفَ الرَّدَى وَمَضَى
 مُوَكَّلًا بِبِنْفَاعِ الْأَرْضِ يَشْرَفُ
 إِنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدُوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ
 تَسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضَجَتْ
 يَا رَبِّ حَوْبَاءَ لَمَّا اجْتَثُّ دَابِرَهُمْ
 مَغْضَبٍ رَجَعَتْ بَيْضُ السِّيُوفِ بِهِ
 وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ فِي مَازِقِ لَجَجِ
 كَمْ نَيْلٌ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرِ
 كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا
 كَمْ أَحْرَزَتْ قُضْبُ الْهِنْدِيِّ مَصْلَةَ
 بَيْضٍ إِذَا انْتَضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ
 خَلِيفَةُ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعِيكَ عَنْ
 بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكَبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
 إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَجَمِ
 فَبَيْنَ أَيَّامِكَ الْإِلَاطِي نُصِرَتْ بِهَا
 أَبَقَتْ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمَمْرَاضِ كَأَسْمِهِمْ
 فَهَلْ مِنْ «مَعْتَصِمٍ» ثَانٍ يَجِيبُ صَرَخَاتِ الْأَرَامِلِ الثَّكَالِي، وَالْفَتَيَاتِ الْيَتَامَى
 فِي فَلَسْطِينَ السُّلَيْبَةِ الطَّاهِرَةِ، الَّتِي دَنَسَهَا الصَّهَابِيَّةُ اللَّثَامُ بِأَرْجَاسِهِمْ؟ أَمْ أَنْ الْأَمْرُ
 كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ «عَمْرُ أَبُو رَيْشَةَ»:

رَبِّ وَامْعَتَصِمَاهُ انْطَلَقَتْ
 لَامَتْ أَسْمَاعُهُمْ لَكُنْهَا
 مِلَّةٌ أَفْوَاهِ الصَّبَايَا الْيُتَمِ
 لَمْ تَلَامَسْ نَخْوَةَ الْمَعْتَصِمِ

ولئن كان بعض الناس قانطاً من ظهور «معتصم» آخر ليرد للإسلام كرامته وعزته، فأنا لست من القانطين، والله لمن استعان به خير معين. وكانت وقعة «عمورية» سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وولد للمعتصم ثمانية ذكور وثمان إناث، وعرفت من أمهات أولاده «قراطيس» أم ولده «الواثق»، و«شجاع» أم ولده «المتوكل»، وكانت وفاته سنة /٢٢٧/ هـ، في «سُرٍّ من رأي».

(١) القصيدة في ديوان أبي تمام (١/٤٥ - ٧٩). ط. دار المعارف - ذخائر العرب.